**المحاضرة الثامنة: التصوف ( نشأته وتطوره )**

إن شعور الإنسان بسمو الخالق معززا بحرارة الإيمان، والنشوة البالغة التي ينالها المؤمن بما لديه من استعداد لربط الاتصال بين المحدود واللامحدود، والنسبي والمطلق، فضلا عن الزهد ونبذ ملذات الحياة، وإنكار الذات إنكارا تاما بإذابتها كليا في التفكير بالله، كل ذلك وغيره شكل جملة الأسس الرئيسية التي قامت عليها التجربة الذوقية كما كتب للمتصوفة أن يخوضوها بالرغم من تشعب السبل فيما بينهم. وإن من شأن ممارسة هذه التجربة أن تؤدي إلى الحصول على تقرب أكبر من الخالق، ومعرفة أدق بذاته، وكشف أفضل لحقيقته، وسعادة أعم للروح من الاتحاد فيه، حتى وإن قاد مثل هذا الاعتقاد من غير شك الكثيرين إلى تكريس حياتهم للدين والعبادة.

**أولا: مفهوم التصوف**

اسم التصوف كثرت الأقاويل واختلفت في سبب إطلاقه:

ـ فمنهم من قال: إن التصوف نسبة إلى لبس الصوف الخشن، لأن الصوفية كانوا يلبسونه للتقشف والزهد.

ـ وقيل : أنه مشتق من " صوفة " وذلك أن قوما كانوا في الجاهلية يقال لهم " صوفة " انقطعوا إلى الله

تعالى، وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية.

ـ ومنهم من قال : " من الصفاء " أي أن أهله صفت قلوبهم لله وارتفعت همم إقبالهم عليه ووقوفهم بسرائرهم

بين يديه.

أما التصوف اصطلاحا: فقد قيلت فيه تعاريف كثيرة، نذكر منها:

ـ عرف " جلال الدين السيوطي " التصوف : " بأنه تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه ".

ـ وقال الشيخ " محي الدين بن عربي " : " التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا ".

ـ وذكر العلامة " المنجوري " أن : " التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والبخل... وكيفية العلاج منها حتى يتوصل إلى تخلية القلب من غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله تعالى ".

وعليه نفهم أن أصل التصوف وميزته الأساسية هي : الإيمان بالله تعالى ومحبته، فهذه هي قاعدة الطريق إلى الله، واتخاذ تزكية النفس وترويضها كوسيلة لبلوغ المحبة الصافية لله، وهي محبة لا تقوم على مجرد الطاعة لأوامره والخوف من نواهيه، بل إن المحب يعطي من عنده فوق ما يؤمر به ولا ينتظر الطلب ليستجيب إليه.

من هنا كان التصوف تجربة ذوقية روحية، وذلك بإخلاص العبودية للخالق المعبود والتجرد له.

**ثانيا: التصوف: نشأته ومراحل تطوره**

قد يتساءل البعض عن منشأ التصوف، وهل كان موجودا في عهد الصحابة والتابعين ؟ ولماذا الدعوة إلى التصوف في شكل مذاهب كانت متأخرة ؟

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات تقتضي العودة إلى تراث هذه الأمة، لمعرفة الجذور والأصول الأولى للتصوف الإسلامي :

**1 ـ التصوف العملي :** الإسلام دين الله الخاتم، شريعة وعقيدة، يعنى بالنواحي المادية والنواحي المعنوية الروحية، وجه إلى الآخرة ورغب فيها، ونبه إلى الأخذ بنصيب الدنيا، كل هذا أخرج جيلا في العصر الإسلامي الأول، كانوا أهل تقى وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم وبقرب اتصالهم برسول الله، فكانوا يتسابقون للاقتداء به، فصاروا بالليل قياما وتعبدا، وفي النهار فرسانا، فكانوا صوفيين فعلا بأعمالهم، تحلوا بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله إيمانا وعملا، ومن أشهر هؤلاء الذين عرفوا بالتصوف من الصحابة: أبو ذر الغفاري، حذيفة بن اليمان، سلمان الفارسي... وبعدهم من التابعين: الحسن البصري، مالك بن دينار... وهذا يعني أن التصوف بدأ في شكل عملي كنزعة روحية قوية، عبرت عنها حياة الصحابة، ومن جاؤوا بعدهم من التابعين، كطريقة لتزكية النفس، والزهد في الدنيا، والإقبال على الله وطلب الآخرة.

**2 ـ التصوف النظري:** انقلب التصوف من نهج عملي سلوكي إلى نظام فلسفي نظري، وظهرت الاتجاهات الصوفية وتعددت طرقها، قال ابن خلدون :" صار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط". واشتهر أعلام التصوف وتسربت إلى آراءهم كثير من الأفكار المتطرفة الدخيلة كالحلول والعرفان والفناء... وبعض الحماقات السلوكية الشاذة، وغالى فريق منهم نظريا بالعلم ومعرفة ما لا يقدر عليه الناس، وغالى آخرون عمليا بالطرائق السلوكية وإدعاء الكرامات، مما حمل الكثير من الفقهاء والمتكلمين للوقوف ضد انحرافاتهم، وإبطال مفاسدهم، وأشهر من رفع هذا اللواء "أبو حامد الغزالي".

**ثالثا: مناهج التصوف**

الواقع أننا إذا نظرنا إلى الصوفية والتصوف بنظرة عامة نجدها:

ـ الصوفية من حيث الموضوع نوعان:

**أـ نوع العقل والمعرفة:** ومن أشهرهم " أبو حامد الغزالي " و " محي الدين بن عربي " و " ذو النون المصري "، فهؤلاء من الصوفية العقليين طلاب المعرفة، يذهبون بالعقل إلى غاية حدوده، ويقولون جميعا بلسان " الغزالي " إن الشك أول مراتب اليقين، لكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان، ونور الحب، والرغبة في مرضاة الله فيسلمون أمرهم كله إلى الإيمان.

**ب ــ نوع القلب والرياضة:** وهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات، لأنها عندهم حائل بينهم وبين الأنوار الربانية، فإذا أفلت الصوفي من قيودها، تكشف له النور، ووصل إلى مرتبة العارفين بصفاء النفس واليقين.

ـ الصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان:

أ ـ نوع يزهدها وينبذها، لأنها وهم وغشاوة وجب الإعراض عنها.

ب ـ ونوع يمشي فيها ويصل منها إلى الله، وذلك بخوض غمار الدنيا وابتلاءاتها، وامتحان النفس بتجاربها وفتنها. هذا من جهة، أما إذا نظرنا إلى التصوف بنظرة أكثر منهجية وعلمية، من حيث طبيعته ومناهجه وطرقه، فإننا نجد التصوف في الإسلام قد تعددت مناهجه، وكثرت طرقه، نتناول ثلاثة منها وهي:

**1 ــ منهج الزهد والتقشف:** الزهد بغض الدنيا والإعراض عن شهواتها، وعدم الأخذ منها إلا ما يعين على طاعة الله، لذلك قيل : الزهد ترك راحة الدنيا طلبا للآخرة. وهذا المنهج يستمد مشروعيته من الوحي الإلهي سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية. قال الله عز وجل: " وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى "، وقال النبي: " كن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل ". وقد ظهرت ملامح هذا المنهج السلوكي في التربية وتطهير النفس والتعفف عن الدنيا والزهد فيها منذ الصدر الأول للإسلام، وميل كثير من الصحابة إلى التقشف والزهد برغم يسر حالهم، وإيثار الآخرة على الدنيا، كأبي بكر الصديق، وعمر بين الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري.... وجاء بعدهم من التابعين وتابعيهم من أخذ بهذا المنهج وأشهرهم " الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز....

**2 ـــ منهج الإشراق والكشف:** ومعنى الإشراق ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وفيضانها على الأنفس الكاملة عند التجرد عن المواد الجسمية، وهذا المنهج الإشراقي أساسه فكرة " أن الله هو نور بل هو نور الأنوار" وان جميع الموجودات تستمد نورها منه، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. ويشرح الغزالي " فكرة النور" في كتابه " إحياء علوم الدين " في قسم " علم المكاشفة " : بأنه نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، فتفيض به جوانب النفس كلها، وعنه تنكشف أمور كثيرة ويرتفع الغطاء عن عقل المرء حتى تتضح له جلية الحق في الأمر كلها. ومن هنا كان النور أو ما يسمى بالإشراق عند الصوفية هو طريق الكشف والمشاهدة، والإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمر الحقيقة، ويرى أصحاب هذا المنهج وعلى رأسهم " شهاب الدين السهروردي " ( أن العلم الصحيح هو ما يقذفه الله من نور في القلب، وهو نور إلهي يختص به من يشاء من عباده، ومن لا نور له لا كشف ولا علم له ويسمونه " علم الأذواق" ).

**3 ـــ منهج العرفان ووحدة الوجود:** العرفان هو العلم بأسرار الحقائق الدينية، وهو أرقى من العلم. والعرفاني هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية، بل يغوص إلى باطنها لمعرفة أسرارها. وقد أسس لهذا المنهج

العرفاني في التصوف الإسلامي المفكر الصوفي " محي الدين بن عربي " حيث يرى أن استلهام الحق وتجلياته، لا يدرك على حقيقته إلا من تجلى له الحق، وما الحقيقة إلا فيض نوراني يتجلى للعارفين وقربهم من الحظيرة الإلهية، وما تغمرهم به من أنوار.